

الباب التاسع

فى دولة السلطان الأعظم الخاقانى الأفخم السلطان سليم^(١) خان الثانى

صاحب الخيرات الجارية والجوامع والمباني، تغمده الله بالرحمة والرضوان وسقى ضريحه زلال الكرم والعفو والغفران، وحفَّ بروائح الروح والريحان.

كان مولده الشريف سنة تسع وعشرين وتسعمائة، وجلوسه الكريم على تخت ملكه الشريف بالقسطنطينية العظمى فى يوم الاثنين لتسع مضمين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة، ومدة سلطته الشريفة تسع سنين، وسنه حين تسلطن ست وأربعون سنة، وعمره كله ثلاث وخمسون سنة.

وبعد ثلاثة أيام من جلوسه على التخت الشريف توجه إلى سكتوار لحفظ عساكر الإسلام المجاهدين فى سبيل الله فى حاق بلاد الكفر مشغولين بفريضة الجهاد، بغاية الجِدِّ والاجتهاد، وسار سيراً حثيثاً إلى أن وصل ركابه الشريف السلطانى إلى سرحد^(٢) يقال له سرم، فلاقتة عروض حضرة الوزير الأعظم آصف الزمان محمد باشا، أنعش الله بوجوده ملة الإسلام إنعاشاً، يتضمن هجوم الشتاء عليه وتيسر فتح قلعة سكتوار، وقمع مرده الكفار الفعجار، والتمس الإذن الشريف السلطانى للعسكر المنصور الخاقانى بالعود

(١) انظر فى السلطان سليم: المنح الرحمانية ص ١٨٥.

(٢) فى م: «موضع» وسرحد: كلمة مركبة من: «سر» الفارسية بمعنى رأسى، و«حد» العربية بمعنى: الحدود، أطلقت على حامية عسكرية من وحدات اليرلية فى العهد العثمانى، مهمتها حراسة حدود الدولة وحرمان العدو من عنصر المفاجأة فى الانقضاض على مواقع الجيش المرابط على الحدود.

إلى الأوطان، واستمرار الركاب الشريف السلطاني بذلك المكان، إلى أن يصل هو مع بقية الوزراء وأركان الدولة إلى لثم الركاب الشريف السلطاني، والاحتفال بتراب الباب الشريف الخاقاني، وبعد ذلك يعودون في الخدمة الشريفة السلطانية إلى مقرّ التخت الشريف السلطاني بالقسطنطينية العظمى، فأجيب حضرة الوزير الأعظم إلى ما أشار إليه واستقرّ ركاب السلطنة الشريفة بذلك المحلّ والقرار عليه إلى أن ورد حضرة الوزير الأعظم المشار إلى حضرته العلية وباقي الوزراء وأركان الدولة الشريفة وقبلوا الركاب الشريف السلطاني وهتّوه بالملك الشريف الخاقاني وعادوا في خدمة السلطنة الشريفة إلى إسطنبول، بغاية البشر واليَمْن والقبول.

وعند الوصول إلى باب السّراى السلطاني حصل من رعاك العسكر وغوغائهم مدافعة وممانعة من دخول إلى السّراى الشريف وطلبوا عادتهم عند تجدد السلطان أدّت إلى سوء أدب عن بعض جهّالهم، فجاء المرحوم المفتى الأعظم رئيس العلماء الأعلام، وكبير كبراء الموالى العظام، مولانا أبو السعود أفندى العمادى يسر الله تعالى خطاه في الجنة^(١)، وأفاض عليه سبحانه الأجر والثواب والفضل والمِنَّة، فوعظ العسكر وألآن لهم الكلام والتزم لهم بعوائدهم وترقياتهم وعطاياهم العظام فلانوا بعد القسوة، واستغفروا من تلك الهفوة، وصحوا من سكر الجهالة، واهتدوا بعد الضلالة.

ودخل حضرة السلطان الأعظم إلى سرّايه الشريف، وجلس على تخته العالى المنيف، ووفى للعسكر بما التزم لهم به حضرة المفتى الأعظم، وأفاض إحسانه عليهم وأنعم، وأصرف في ذلك خزائن عظيمة لا تُحصى، ووزع عليه من الورق والعسجد ما لا يُحصى ولا يستقصى، وأمر بقتل بعض من كان سبباً لهذه الغوغاء من السفهاء، وسكنت الفتنة والله الحمد على جزيل النعماء، وله الشكر على جميع الآلى، وله الحمد فى الآخرة والأولى.

(١) كذا فى م. وفى ل: حشر الله تعالى خطاياهم فى الجنة.

ودخل عليه العلماء العظام، للتهنئة بالملك والتحية والسلام، ثم أركان الدولة على قوانينهم وحصل لهم بحسب مراتبهم الإجلال والإكرام، وقرت عيون الأنام، بكمال الأمن والاطمئنان وتمام حسن الانتظام.

ثم جهزت البشائر السلطانية إلى الممالك الشريفة العثمانية بالخلع الشريفة الفاخرة الخاقانية فحصل لنواب السلطنة الشريفة كمال الفرح والسرور، وتمام البشر والحبور بانتظام الأمور، ووصلت التهنئة من ملوك الأطراف بالتتحف والهدايا اللطيفة الظراف وقرت العيون، وزالت الغبون، واستقرت الخواطر والظنون.

. وكان سلطاناً كريماً، رءوفاً بالرعية رحيمًا، عفوًا عن الجرائم حلِيمًا، محبًا للعلماء والصلحاء، محسنًا إلى المشايخ والفقراء، كان إحسانه يصل إلى فقراء الحرمين الشريفين وهو شاه زاده، وتصل تشاريفه وكساويه في كل عام إلى العلماء والفقهاء وكان يصل إلى إحسانه وكسوته في كل سنة، بعد أن ولي السلطنة الشريفة لم يقطع عادة إحسانه، واستمر يصل ذلك إليهم في كل عام بحيث أضيف ذلك إلى دفتر الصرة الرومية، ويقسم كل سنة على حكمه السابق إلى الآن، فهو الملك الهمام المحسن المنعم، الفائض الإحسان والإنعام، طالما طافت بكعبته الآمال واعتمرت، وصدعت بأوامره الليالي فأثمرت، وغرس في رياض السعادة غروس أشجار السيادة فبسقت وأثمرت، وعمرت بحسن نظره أرجاء البلاد فتمدنت بعد الخراب وعمرت، ودمرت بسياسته أركان الظلم فخرت ديار الظالمين ودمرت، كم أظهرت لسواد الكفرة يد صارمه البيضاء آية للناظرين، وكم جهز جيوشًا للجهاد في سبيل الله فقطع دابر الكافرين، فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد، ومنها فتح تونس الغرب، وحلق الواد، ومنها فتح ممالك اليمن واسترجاعها من العصاة البغاة أهل الإلحاد، ومن خيراته تضعيف صدقة الحب، وإرساله مدة سلطنته إلى الحرمين الشريفين، ومنها الأمر ببناء المسجد الحرام زاده الله شرقًا وتعظيمًا وكل ذلك من الآثار العظيمة، والمزايا الفاضلة الكريمة، فلنذكرها

بطريق الإجمال، لضيق المجال.

فأما قبرس فإنها - بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوام - جزيرة فى البحر قال الفقيه العدل المفتن أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور الحميرى فى كتابه الروض المعطار فى أخبار الأقطار: قبرس جزيرة على البحر الشامى كبيرة القطر مقدارها مسيرة ستة عشر يوماً، وبها قُرَى ومزارع وأشجار ومواش، وبها معدن الزاج القبرىس ومنها يُجَلَّبُ إلى سائر الأقطار، وبها ثلاث مُدن ومن قبرس إلى طرابلس الشام مجريان فى البحر، وقبرس على عمر الأيام رخاؤها شامل وخيراتها كاملة^(١).

وكان معاوية غزاها وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار، فنقضوا عليه فغزاهم ثانية فقتل وسبى سبباً^(٢) كثيراً، وروى أنه لما افتتحت مدائن قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبى فيما بينهم بكى أبو الدرداء وتنحى عنهم ثم احتبى بحمائل سيفه ودموعه تجرى على خديه، فقيل له: أتبكى فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الكفر وأهله؟ فضرب على منكبيه وقال: ويحك ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، فإنما هى قوة ظاهرة وقدرة قاهرة لهم على الناس إذا تركوا أمره فصاروا أذلة وصار حالهم على ما ترى من السبى والإهانة^(٣).

وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام، وبينها وبين جزيرة رودس مسافة يوم واحد، وإنما سُميت جزيرة قبرس بوثن كان هناك يُسمى قابرس، كان يعظمه الكفار ويعظمون لأجله جزيرة قبرس^(٤).

وأهل مدينة قبرس موصوفون بالغناء واليسار، وبها معادن الصفر، ويُجمع

(١) الروض المعطار ص ٤٥٣.

(٢) فى الأصلين: «شيئاً» والثبت لدى الحميرى الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) الروض المعطار ص ٤٥٤.

(٤) المصدر السابق.

منها اللادن الحسن الرائحة الذى يغلب العود فى طيبه، وهو الذى يجمع منه على الشجر خاصة، وكان يحمل إلى ملك القسطنطينية لأنه أفضله، وما يجمع منه مما تساقط على وجه الأرض يبيعونه للناس^(١).

وكانت أم حرام بنت ملحان الصحابية رضى الله عنها شهدت غزوة قبرس فتوقيت بها، وأهل قبرس يتبركون بقبرها ويقولون هو قبر المرأة الصالحة، وكانت سألت رسول الله ﷺ ليدعو لها الله عزَّ وجلَّ أن يجعلها من الذين يركبون ثبج البحر مجاهدين فى سبيل الله، ففعل، وهو حديث معروف^(٢).

وكان الأوزاعى يقول: إنا نرى هؤلاء، يعنى أهل قبرس أهل عهد، وأن صلحهم وقع على شىء فيه شرط لهم وشرط عليهم، وأنه لا يسعهم نقضه إلا بأمر يعرف به عذرهم^(٣).

ورأى^(٤) عبد الملك بن صالح فى حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعهدهم فكتب إلى عدّة من الفقهاء يشاورهم فى أمرهم، منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزارى ومحمد بن الحسن، فاختلفوا عليه وأجاب كل واحد بما ظهر له^(٥).

قالوا: انتهى خراج أهل قبرس الذى يؤدونه إلى المسلمين بعد المائتين من الهجرة إلى أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وسبعة وأربعين ألف^(٦). انتهى ما ذكره صاحب الروض المعطار.

قلتُ: وقد تقدّم ما نقلناه أنها افتتحت فى أيام دولة الجراكسة فى سلطنة السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى وأسر ملكها فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة فكان أهل قبرس فى أيام الدولة الشريفة العثمانية مهادين يدفعون

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) كذا لدى الحميرى الذى ينقل عنه المصنف، وفى الأصلين: «غدرهم» بالغين المعجمة.

(٤) كذا فى م ومثله لدى الحميرى الذى ينقل عنه المصنف، وفى ل: «وروى».

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

إلى الخزانة العامرة السلطانية ما كان مقرراً عليهم، غير أنهم أخذوا في المكر والخداع وإظهار الطاعة والوفاق، وإخفاء الغدر والشقاق، فصاروا يقطعون الطريق في البحر على المسلمين وإذا أخذوا سفينة من سفائن المسلمين قتلوا جميع من ظفروا به في تلك السفينة وغرقوها في البحر لإخفاء ما فعلوه، وصاروا يؤوون قطاع الطريق من النصارى ويساعدونهم على المسلمين إلى أن كثر أذاهم وعمّ ضررهم فاستفتى المرحوم السلطان سليم خان من المرحوم مفتى الإسلام مولانا أبى السُّعود أفندى العمادى رحمهما الله تعالى فأفتاه بأنهم غدروا ونقضوا العهد وأن قتالهم جائز بسبب ما ارتكبه من الغدر والخيانة^(١).

فجهّز عليهم حضرة السلطان سليم جيشاً كثيفاً وعسكراً منصوراً منيفاً أرسلهم من البرّ، وعمارة عامرة من جانب البحر وجعل سردار الجميع حضرة الوزير المعظم، والمشير المفخم، نظام العالم، مدبر مصالح جماهير الأمم، قائد جيوش الموحدين، قاهر جنود الكفار والملحدّين، اعتضاد الملوك والسلاطين، اعتماد الغزاة والمجاهدين المخصوص بعناية رب العالمين، حضرة مصطفى باشا اللالا^(٢)، زاده الله تعالى عزاً وجلالاً، وسعادة وسيادة وإقبالاً، وأيده بالنصر المبين فى الفتح القريب إسعاداً وإجلالاً، فامثل الأمر الشريف السلطانى، وبرز محفوظاً بالنصر الصمّدانى، والعون الربانى، ومعه عسكر جرّار، من كل بطل مغوار، ملثوا وجه الأرض برأً وبحراً، كأنهم قطعة نار مضطربة أو أشدّ حرّاً، أيّان سلّكوا دهكوا وملكوا، وأيّان صدّفوا من الأعداء سفكوا وقتكوا.

وضربت طبول النصر فكانت كنفخ الصُّور، وانتشرت العساكر المنصورة فشوهد يوم الحشر والبعث والنشور، وتوجّه حضرة الوزير مظفراً مؤيداً منصوراً، وسعى إلى جهاد الكفار وكان سعيه مشكوراً، وطوى المراحل

(١) المنح الرحمانية ص ١٨٥.

(٢) المنح الرحمانية ص ١٨٦.

والمنازل وهو يطوى الأرض طياً، ويفرى بسيف عزمه أديم المهامه والمناهل قَرِيًّا، إلى أن وصل ركابه العالى، ومن معه من الجيش المنصور المتوالى، إلى جزيرة قبرس فأحاط بقلاعها إحاطة الخاتم بالإصبع، وفرق الجنود على حصونها فكانت من كل حصن أحكم وأمنع، وقد تحصّن بها الكفار واعتصموا بقللها، وأحكموا خنادقها وأوعروا مسالك سهلها وجبلها، فارتجت بوصول العساكر المنصورة حصون تلك الجزيرة وقلاعها، وتزلزلت جبالها ورمالها وأصقاعها وبقاعها.

وكان من أحكم الحصون المشيِّدة ثلاث قلاع، فى غاية العلوّ والارتفاع، ونهاية المنعة والقوة والامتناع، شامخة البنيان، راسخة الأركان، أقواها قلعة ماغوسا لا يُحلّق عليها من الطيور إلا النسران، ولا يوازن أبراجها من بروج السماء إلا الميزان، تلامس فى العلوّ والشهوق، نجوم الثريا والعيوق، وتوازى بناء الأهرام فى الإتيقان والإحكام بل تزيد عليها وتفوق، لا تبالى بضرب المكاحل والمدافع، ولا يوهنها قرع المقارع والمقارع، مشحونة بآلات الحرب من جميع الأنواع، مملوءة بالمقاتلة وأهل القراع، محشوة بأجلاف النصارى الأبطال أهل الصيال والصراع، وفيهم من الرماة من يرمى على الحدق، ويحررّ فلا يخطئ من الدرع الملقى، وعندهم المياه والفواكه والأقوات والزرور والبساتين، ومن دونهم خنادق عريضة نارلة إلى تخوم الأرضين، محمية بالمدافع الكبار، ترمى من أعلى القلاع إلى من يقرب منها بالليل والنهار.

فأحاطت العساكر المنصورة السلطانية بتلك القلاع والحصون، وناوشوهم القتال وأذاقوهم كثوس ريب المتون.

وقاتلهم المسلمون بالليل والنهار، وقابلهم الموحدون برمى المدافع الكبار، بالأصيل والأسحار، فكاد النهار أن ينقلب ليلاً بدُخان البارود البارق، والليل ينقلب نهاراً ببوارق فتائل البنادق والصواعق، فحاصرهم المجاهدون فى سبيل الله وضيق عليهم جنود الإسلام الغزاة، ورموا بالمدافع الكبار السلطانية

عليهم فحطمت دورهم، وهدمت قصورهم، فصارت بيوتهم قبورهم، وكُسرت ظهورهم، فافتتحت قلعتان، وبقيت القلعة الثالثة وهى ماغوسا وفيها سلطانهم محصور، وكلُّ محصور مأخوذ ومأسور، فثبت وأظهر الجلد، وكابد فى محاصرته أنواع الكمد، إلى أن وهنت قُوَاه، وذابت كبده وحشاه.

واضطرَّ إلى طلب الأمان، والتذللُّ لحضرة الوزير الرفيع الشأن، فشملته عناية حضرة الوزير المعظم المكين وأعطاه الأمان، وشرط عليه أن يفكَّ من عنده من أسارى المسلمين، ويدُوس البساط الشريف السلطاني لِيتمَّ له التأمين، ويحصلُ له التطمين، فوافق على ذلك وأطلق الأسرى وحضر ليقابل حضرة الوزير المعظم جبراً وقسراً فأخبر بعض الأسارى أنه خان، بعد انعقاد الأمان، وقتل جماعة من أسارى المسلمين بالسيف صبراً وأخفى ذلك عن المسلمين وفعل هذه الخيانة سراً.

فلما علم حضرة الوزير المعظم أن ملكهم قد خان، طلبه إلى بين يديه وأهانته غاية الهوان، وركب وحمله غاشية السرج وأمره أن يمشى قدامه كسائر الغلمان، ثم ضرب عنقه لخيانته ونقض عهده وأخذ أمواله وذخائره وقتل من أراد واستأسر واسترق من أراد.

وصارت جزيرة قبرس دار الإسلام وأضيفت إلى سائر الممالك الإسلامية العثمانية باجتهاد هذا الوزير المعظم، وإصابة رأيه وتدبيره الصائب الأتم.

وما بلغنى تفصيل ما وقع فى هذه الغزوة وما أمكننى تحقيقها، وأردت كثيراً إفرادها بالتأليف وذكر ما وقع فيها فلم أظفر بذلك، فإن أظفرنى الله تعالى بالاطلاع على أكثر مما ذكرته هنا أجعل له تاريخاً مستقلاً واسع المجال لطيف المفاكحة بليغ المقال إن شاء الله تعالى.

وأما فتح بلاد اليمن^(١)، فإن إقليم اليمن من صنعاء إلى عدن كانت داخلة فى الممالك الشريفة السلطانية العثمانية فى أيام دولة المرحوم السلطان الأعظم سليمان خان، أسكنه الله تعالى فردوس الجنان، وحفَّ روضته الطيبة الطاهرة

(١) انظر فى فتح بلاد اليمن: المنح الرحمانية ص ١٨٧.

بالروح والريحان .

وكان أول فتحها الخاقاني على يد الوزير المعظم سليمان باشا الخادم بكلمركى مصر لما توجه إلى الهند لغزاة الإفرنج البرتغال فى سنة خمس وأربعين وتسعمائة فأقام بكلمركياً، واستمر كذلك فى تصرف بكلمركى الذى تولى من الباب الشريف السلطاني يتولاها واحد بعد واحد إلى أن وُزعت مملكة اليمن بين بكلمركيين بعرض المرحوم محمود باشا: إن مملكة اليمن واسعة يمكن أن يولى فى أعلاها فى الجبال من صنعاء إلى تعز بكلمركى، ويولى فى التهائم^(١) وهى^(٢) ربيد وسائر السواحل والبنادر بكلمركى آخر، وكان هذا عين الخطأ، فإن ذلك مظنة الاختلاف والجدال، كما قال الله تعالى الحكيم المتعال: ﴿لَوْ كَانَ فِيْمَا آلِهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الانباء: ٢٢]، فقبل عرضه فى الباب العالى قصداً إلى تكثير المناصب وتعدد بكلمركية^(٣).

فولى أعلى اليمن وجبالها المرحوم مراد باشا وكان يقال له كور مراد لخلل كان بإحدى عينيه وكان خرج من السراى السلطاني وكان من أمراء السناجق، وصار أمير الحاج الشامى، ثم ولى سنجق غزّة ثم أعطى نصف مملكة اليمن^(٤).

وولى جهة التهائم لحسن باشا وهو أيضاً من المماليك السلطانية برز من السراى السلطاني، فانقسمت عساكرها وأموالها ومحصولها نصفين، وضعف أمر كل واحد منهما، وكان مطهر بن شرف الدين يحيى الزيدى لعب الشيطان بعقله، وسوّلت له نفسه العصيان وكانت داعية العصيان مضمرة فى خاطره، طمعاً فى الملك فصادف انقسام المملكة وصول خبر وفاة المرحوم السلطان سليم خان، فأظهر العصيان هو ولفيفه من العُربان، وجهز أميراً من

(١) أى منطقة التهامة .

(٢) لدى ابن أبى السرور البكرى وهو ينقل عن المؤلف: (ويين).

(٣) المنح الرحمانية ص ١٨٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٩ .

أمرائه يقال له على بن شُوَيْح، وجمع عليه العربان فقطعوا الطريق على مراد باشا في مَحَطَّةِ ذِمَار وهو غافل من عصيانهم، وكان قاصداً من تَعَزُّ إلى صنعاء وهي محصورة بالعربان الزيديين فعدموا عليق الخيل وخلوا من الطعام بالكلية، وكلما أرسل من طائفته من يأتيه بالغلل والميرة قطعوا عليه الطريق وقتلوه^(١).

فلما زاد به هذا الأمر، وفتن لعصيان العربان، رجع مراد باشا إلى تعز، وسلك وادي حُبَّان وهو محلٌّ وَعَرٌّ بين جبلين عالين في غاية الوعورة والصعوبة عسر المسلك كثير المهلك، فلما توسَّطوا بين هذين الجبلين وقد امتلأت قللها بالأعراب كالجراد المنتشر والسحاب، رموهم بالأحجار والصخار الصغار والكبار، وأطلقوا عليهم المياه فصار مراد باشا وعسكره يخوضون في ذلك الماء وقد ازدحموا على محل الخروج وهو مكان ضيق سدته الجمال والأحمال وليس فيهم منعة ولا لهم نجدة ولا لخيولهم قوة ولا قدرة على الجولان، فاستسلموا للقتل وقُتل منهم من دنا أجله^(٢).

وخرج مراد باشا ومعه نحو عشرين سنجقاً، فكبستهم العربان وسلبتهم وتركوها كل واحد منهم عرياناً في لباس، وسائر بدنه مكشوف، فأووا إلى مسجد يقال له مَضْرَح، وعيون المنايا تسرح إليهم وتطمح، فوصل إليهم شيخ مَضْرَح وكان له ثأر قديم عند الأروام وكان سليمان باشا صلب أباه كَمَا افتتح عدن فصاح: وإثأراه، وقتل مراد باشا وأرسل برأسه إلى مطهرّ وقيد الأمراء وأرسلهم إلى مطهرّ فلم يقتلهم، بل حبسهم في مطامير تحت الأرض ومات بعضهم من الضيق والظنك، وخلص منهم من له بقية عمر بعد ذلك^(٣).

واستمرّ أمراء مطهرّ يأخذون جبال اليمن إلى أن أخذوا صنعاء وتعزّ

(١) أورده صاحب المنح بنصه ص ١٩٠ نقلاً عن المؤلف.

(٢) أورده كذلك البكري بنصه ص ١٩١ نقلاً عن المؤلف.

(٣) المنح الرحمانية ص ١٩١.

وحصن حَبَّ وعدن وعجزوا عن أخذ زبيد صانها الله تعالى، وبها شردمة قليلة من الأروام مع حسن باشا مع ظلمه وغشمه لأهل زبيد ومصادرته لكل أحد، ووصل لأخذها على بن شُويع ومعه فوق خمسين ألف مقاتل وخطَّ خارج زبيد فخرج إليه بقية العسكر السلطاني وهم نحو مائتي فارس، وبرروا لقتال هذا الجَمِّ الغفير ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وحملوا على على بن شُويع وقد ألقوا أنفسهم إلى التهلكة فتزلزلت أقدامه وفرَّ هارباً وسقط من فرسه في هروبه ولحقه جماعة من الأسباهية^(١) أرادوا قتله، فلحقه عبدٌ من عبيده بفرس فركب وهرب ونجا بنفسه لا لنجاه الله تعالى^(٢).

وسُمعت من مقابر زبيد أصوات مدافع ترمى عليهم من غير أن يُرى شخصٌ فنصر الله المؤمنين على أولئك الملحددين في الدين، وقُتل منهم ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وغنمت العساكر وطاقهم وأحمالهم وأثقالهم وولّوا على أدبارهم راجعين ولم يقدموا بعد ذلك على زبيد، كأنما عليها حصن من حديد، من عند الله العزيز الحميد^(٣).

فلما أحاطت العلوم الشريفة السلطانية بما وقع من هذا الاختلال في اليمن، برزت الأوامر الشريفة إلى بكربكى مصر يومئذ المكرم المفخم نظام العالم، صاحب السيف والقلم، مدبر مصالح جماهير الأمم، فاتح ممالك اليمن الأيمن، من كوكبان إلى عدن، وقالع قلاع حلق الواد وأخذ بلاد تونس الغرب ودافع عنها الكفر والمحن، ليث عرين الوطيس افتراساً، وشدة جاشٍ وبأساً، الوزير المعظم سنان باشا، أنعش الله به الدين الحنيفي إنعاشاً، وأيد بنصره أهل السنة السنّة وفرش الأرض بمعدلته فراشاً، فإنه أسدٌ ضرغام، وليث قمقام، وحسام صمصام، وكريم محسن فائض الجود والإكرام، جواد

(١) السباهية: هم الفرسان في الدولة العثمانية، وهم الذين كانوا يقطعون الإقطاعات مقابل الخدمات العسكرية التي يقومون بها.

(٢) المنح الرحمانية ص ١٩٣.

(٣) المنح الرحمانية ص ١٩٣.

بَدُولٍ لَمْ يَنْحَنِ الْهَلَالُ إِلَّا لِيَكُونَ نِعْلًا فِي حَافِرِ جَوَادِهِ، وَلَا مَدَّتِ الشَّرِيَا كَفَّ
 الْخُضْيِبِ إِلَّا لِلتَّمَسُّكِ بِذِيْلِ إِفْضَالِهِ وَإِمْدَادِهِ، وَلَا فَتَحَتْ الدَّوِيُّ أَفْوَاهَهَا إِلَّا
 لِتَنْطِقَ بِمَدْحِهِ أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ، وَلَا حَبَّرَ الْحَبْرُ بِيَاضَ الطَّرُوسِ بِسَوَادِ السُّطُورِ إِلَّا
 لِشِيرِ أَنْ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ لَهُ مِنْ جَمَلَةِ الْخُدَّامِ، طَلَمَا طَوَّقَ الْأَعْنَاقَ أَطْوَاقًا مِنْ
 الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ، كَأَنَّهَا أَطْوَاقُ الْحَمَامِ، وَكَثِيرًا مَا أَحْسَنَ إِلَى الْعُلَمَاءِ
 وَالصَّلْحَاءِ مِنْ جَيْرَانِ بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَجِيرَانِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكِرَامِ،
 عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَكُنْتُ مَنَّ شَمَلْنِي بَرَّةً وَإِنْعَامَهُ، وَوَصَلَ
 إِلَيَّ فِي أَكْثَرِ الْأَيَّامِ إِحْسَانَهُ وَإِكْرَامَهُ، فَأَطْلَقَ لِسَانِي بِشُكْرِهِ، وَأَنْطَلَقَ جَنَانِي
 بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ لِإِحْسَانِهِ وَبِرَّةٍ، فَخَلَّدْتُ ذَكَرَ مَحَاسِنِهِ فِي صَحَائِفِ الْكُتُبِ
 وَالِدَفَاتِرِ، وَرَقَمْتُ كِرَائِمَ صِفَاتِهِ فِي صَفْحَاتِ أَوْرَاقٍ لَا يَخْلُقُهَا الْجَدِيدَانِ وَلَا
 يَبْلِيهَا الدَّهْرُ الْغَابِرُ، وَكُتِبَتْ بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ تَارِيخًا حَافِلًا سَمِّيَتْهُ الْبِرْقُ الْيَمَانِي
 ذَكَرْتُ فِيهِ أَحْوَالَ الْيَمَنِ مِنْ سَنَةِ تِسْعِمَائَةِ، وَاسْتِيْلَاءِ حُسَيْنِ الْكُرْدِي وَطَائِفَةِ
 الْجِرَاكِسَةِ ثُمَّ اللَّوْنِدِ إِلَى زَمَنِ الْفَتْحِ الْعُثْمَانِي أَوْلًا عَلَى يَدِ الْوَزِيرِ سَلِيمَانَ
 بَاشَا، ثُمَّ اسْتِيْلَاءِ الزَّيْدِيِّينَ جِيُوشَ مَطْهَرِّ بْنِ شَرَفِ الدِّينِ ثُمَّ الْفَتْحِ الْعُثْمَانِي
 ثَانِيًا عَلَى يَدِ الْوَزِيرِ الْمُعْظَمِ سَنَانَ بَاشَا أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نَصْرَهُ وَإِجْلَالَهَ، وَخَلَّدَ
 سَعَادَتَهُ وَإِقْبَالَهَ، عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ، وَاكْتَفَيْتُ بِمَا ذَكَرْتَهُ فِي ذَلِكَ التَّارِيخِ عَنْ
 إِعَادَتِهِ هُنَا فَإِنَّهُ يَرُوي الْغَلِيلِ، وَيَفْصَلُ تِلْكَ الْأَحْوَالَ غَايَةَ التَّفْصِيلِ، وَكُنْتُ
 صَدَّرْتُ ذَلِكَ التَّارِيخَ بِقَصِيدَةِ طَنَّانَةٍ مِنْ نِظْمِي الطَّنَّانِ، سَارَتْ بِهَا الرِّكْبَانُ،
 وَتَلَقَّتْهَا بِالْقَبُولِ أَدْبَاءُ عُلَمَاءِ الْبُلْدَانِ، أَحْبَبْتُ إِيرَادَهَا هَهُنَا لِبَلَاغَتِهَا عِنْدَ عُلَمَاءِ
 الْبَيَانِ وَفِصْحَاءِ اللِّسَانِ، تَسَابِقِ أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا إِلَى الْأَذَانِ وَالْأَذْهَانِ، تَسَابِقِ
 أَفْرَاسِ الرِّهَانِ، يُعَدُّ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهَا بَدِيوَانًا، وَتَسْحَبُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا أَذْيَالُ
 الْبَلَاغَةِ عَلَى سَحْبَانٍ، وَهِيَ هَذِهِ^(١):

لَكَ الْحَمْدُ يَا مَوْلَايَ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ

عَلَى عِزَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ

(١) أوردتها البكري ص ١٩٥ نقلًا عن المؤلف.

كذا فليكن فتح البلاد إذا سعت
 له الهمم العُليا إلى أشرف الذكر
 جنود رمت في كوكبان خيامها
 وآخرها بالنيل من شاطئ مصر
 تجرّ من الأبطال كل غضنفر
 بصارمه يسطو على مفرق الدهر
 عساكر سلطان الزمان مليكنا
 خليفة هذا العصر في البر والبحر
 حمى حوزة الدين الخنيفى بالقنا
 وبيض المواضى والمثقفّة السمر
 له في سرير الملك أصل مؤثّل
 تلقاه عن أسلافه السادة الغرّ
 ملوك تساموا للعلا وخلائف
 أولو العزم في أزمانهم وأولو الأمر
 شمس بفيض النور تمحو غياها
 من الكفر منهم يستمدّ ضيا البدر
 هموا ملثوا عين الزمان وقلبه
 فقرت عيون العالمين من البشر
 هم العقد من أعلى اللاكى منظّمًا
 وسلطاننا في الملك واسطة الدرّ
 شهنشاه سلطان الملوك جميعهم
 سليم كريم أصله أطيّب النجر

عماد يلوذ المسلمون بظله
 وسدٌ منيعٌ للأنام من الكفر
 وحين أتاه أن قد اختلّ جانب
 من اليمن الأقصى أصرّ على القهر
 وساق لها جيشًا خميسًا عرمرمًا
 يدك فجاج الأرض في السهل والوعر
 لهم أسد شاكي السلاح عرينه
 طوال الرماح السمهرية والبتر
 وزير عظيم الشأن ثاقب رأيه
 يُجهّز في آن جيوشًا من الفكر
 يقوم بأعباء الوزارة قومه
 يشدّ جيوش الدين بالأيد والأزر
 أباد له بالبأس كاسرة العدا
 ولكنها بالجود جابرة الكسر
 به أمّن الله البلاد وطمّن ال
 عباد وأضحى الدين منشرح الصدر
 سنان عزيز القدر يوسف عصره
 ألم تره في مصر أحكامه تجرى
 تدلى إلى أقصى البلاد بجيشه
 ومهد ملكًا قد تمزّق بالشر
 وشتت شمل الملحدين وردّهم
 مثال قرود في الجبال من الذعر

وقطع رءوساً من كبار رءوسهم
 لهم باطن السُّرحان والطير كالقبر
 وكان عصا موسى تلقف كل ما
 بدأ من صنيع الملحدين من السحر
 ولا زال فيهم عامل الرمح عاملاً
 ولا برحوا في الذلّ بالقتل والأسر
 وما يمنُّ إلا ممالك تُبع
 وناهيك من ملك قديم ومن فخر
 وقد ملكها آل عثمان إذ مضت
 بنو طاهر أهل الشهامة والذكر
 فهل يطمع الزيدى في ملك تبع
 ويأخذه من آل عثمان بالكر
 أبى الله والإسلام والسيف والقنا

وسرّ أمير المؤمنين أبى بكر

فلما تمّ الفتح الخاقانى العثمانى، فى القطر اليمانى، عاد الوزير المعظم،
 إلى بلد الله المكرّم، وحجّ حجة الإسلام، وزار المزارات والمشاهد العظام،
 وصادف الحجّ الأكبر وكانت الوقفة الشريفة يوم الجمعة أفضل الأيام، وأثر
 ببلد الله الحرام، أنواع الخيرات والإنعام، وأحسن إلى أهل الحرمين الشريفين
 ومن حضر فيهما من حجاج الأنام، وقابل شرفاء مكة المشرفة أدام الله عزهم
 وسعادتهم بالاعتزاز والاحترام.

فمن آثاره الخاصة به فى المسجد الحرام فرش حاشية المطاف بالحجر
 الصوان، وكانت من بعد أساطين المطاف الشريف دائرة حول المطاف مفروشة
 بالخصا يدور بها دور حجارة منحوتة مبنية حول الحاشية كالإفريز لها، فأمر
 الوزير المعظم المشار إليه أن تفرش هذه الحاشية بالحجر الصوان المنحوت

ففرشت به في أيام الموسم، وصار محلاً لطيفاً دائراً بالمطاف من بعد أساطين المطاف، وصار ما بعد ذلك مفروشاً بالحصا الصغار كسائر المسجد، وهذا الأثر خاصٌ به ذكره الله تعالى بالصالحات، وأدام له العزَّ والسعادات.

ومنها: تعمير سبيل في التنعيم أنشأها وأمر بإجراء الماء إليها من بئر بعيدة عنها يجرى الماء منها إلى السبيل في ساقية مبنية فيما بينهما بالحصص والثورة، وعين لها خادماً يستقى من البئر ويصب في الساقية فيصل الماء إلى السبيل ليشرَب منه ويتوضأ به المعتمرون والواردون والصادرُونَ ويدعون له بالنصر والتأييد.

وعين مصاريف ذلك من ريع أوقاف له بمصر.

ومنها آبار أمر بحفرها بقرب المدينة الشريفة لقوافل الزوّار في وادي مفرح وغيرها كثيرة النفع جداً.

ومنها قراءة ختمة شريفة في كل يوم يقرأها ثلاثون نفرًا بمكة، وأخرى بالمدينة الشريفة، وعين لكل قارئ جزءاً في كل سنة تسعة دنانير ذهباً، وكذلك لمفرق الأجزاء، وللداعي ولشيخ القراء وعين مصارف ذلك جميعه من أوقافه التي بمصر المحروسة عمرها الله تعالى، وجعل ناظرها والمتكلم عليها وعلى سائر ما عمله من الخيرات سيّدنا ومولانا شيخ الإسلام، قاضي القضاة وناظر المسجد الحرام، صفوة سلالة آل النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، بدر الملة والدين السيد القاضي حسين الحسيني أدام الله عزّه وإقباله، وضاعف سعاداته وإجلاله، وكلّ هذه الخيرات باقية جارية إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

وأما فتح حلق الواد^(١) وبلاد تونس الغرب فهي من أجلّ الغزوات العثمانية وأعظم فتوحاتهم الكبيرة العلية الواقعة في أيام السلطان الأعظم العثماني، السلطان سليم خان الثاني، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له مغفرة جامعة، ومتعته بالنظر إلى وجهه الكريم، ومنحه لذات جنة النعيم، وبيان ذلك أن

(١) انظر في فتح حلق الواد: المنح الرحمانية ص ٩٧.

سلاطين تونس الغرب من آل حفص لما ضعفوا ووهنوا ووقع بينهم الاختلاف، صار بعضهم يلتجئ إلى نصارى الإفرنج ويأتى بجنود الكفرة يستعين بهم على أخذ تونس.

وصار الفرنج يقاتلون من فى تونس من المسلمين ويقتلونهم ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع فى تلك البقاع ويواصلون بجنود النصارى إلى بلاد المسلمين ويولون من تحت أيديهم سلطاناً من بنى حفص سلاطين تونس قديماً على بلاد تونس ومن بها من المسلمين، إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعمّ أذاهم على المسلمين، وانفردوا عنهم وبنوا قلعة عظيمة محكمة الإتقان، مشيدة البنيان بقرب تونس فى موضع يقال له حلق الواد، كأنه بناء شدد، أو وضع العاديين من قبائل عاد وشمود الذين جابوا الصخر بالواد، وشحنوها بالأبطال الباطلين، من شجعان النصارى المشركين، وملئوها بآلات الحرب والقتال.

وصارت النصارى تكمن فيها للمسلمين ويرسلون منها الأغربة والمراكب فى البحر على بلدان المؤمنين الموحددين، ويقطعون الطريق على المسافرين، ويأخذون كل سفينة غصباً، وعمّ أذاهم المسلمين قتلاً وأسرّاً ونهباً وسكّاباً، إلى أن تعدّى ضررهم على طوائف أهل الإسلام، وزاد فساد أهل الصليب على ضعفاء المسلمين من الأنام، وكبير ملوك النصارى الآن صاحب إشبيلية من جزيرة الأندلس أعادها الله تعالى دار الإسلام ببركة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام، يسمونه العوام إصبانية تحريقاً لكلمة إشبيلية، جهّز جيشاً كثيفاً لأخذ تونس ووآس على ذلك سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصى قابله الله تعالى على سوء فعله بما يستحقّه، فأخذ النصارى مملكة تونس، ووضعوا السيف فى أهلها فقتلوا الرجال وسبوا الأولاد والنساء والأطفال وباء أحمد المذكور بإثمه، واسودّ فى صحائف الأيام والليالى ديباجة وجهه واسمه، وانقلب خاسراً مدحوراً، وانخلع عن ربة الدين وازداد خيبة وكفوراً، ونفرت قلوب المسلمين منه وزادت نفوراً، وكيف لا يكون ذلك وقد استعان

بملة الكفر على الإسلام، واستدعى عبدة الصليب والأصنام، ينتصر بهم على أهل ملة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وامتهن دار الإسلام تونس بأقدام أولئك الكفرة اللثام، والاعتصام بالله الكبير المتعال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فانتشرت هذه الأخبار المدهشة، والأنباء المظلمة الموحشة، إلى أن وصلت أبواب سلطان سلاطين الإسلام، ظلّ الله الممدود على مفارق الأنام، مالك صهوة الملك من الذروة إلى الغارب، ملك الملوك من مشارق الأرض والمغرب، واسطة عقد ملوك آل عثمان، المشمول بشمول الرحمة والمكرمة والغفران، من الله الكريم المنان، السلطان سليم خان، ابن السلطان سليمان خان، سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان، وأبقى السلطنة في عقبه إلى انتهاء الزمان.

فلما طرق سمعه الشريف، هذا الحادث الرجيف، وعلم ما أصاب أهل الإسلام، من هذه المصائب العظام، والامتهان الذي قصم الظهر وأوهن العظام، استشاط سخطاً وغضباً، واضطربت نار حميته وتأججت لهباً، وتحركت العصبية الإسلامية، والتهبت نيران الحمية العثمانية، وقام وقعد، وأرغى وأزبد، وأبرق وأرعد، وهدد وأوعد، وخاطب الوزراء العظام، والبيكاربيكية الكبراء الفخام، وقال: من يقدم منكم على نصره الإسلام، وإذلال عبدة الصليب والأصنام، ويستنقذ من أسر من المسلمين بيد أولئك النصارى الطغام، ويخرج من عهدة الكفار الفجرة اللثام؟ فبادر الوزير المعظم، والليث الغشمشم صاحب السيف والقلم، فاتح ممالك اليمن الأيمن المكرم، أبو الفتوحات سنان باشا المفخم، لا زالت ألوية نصره منشورة الذوائب، مشرقة كالشمس يغشى ضوءها المشارق والمغرب، صاعدة إلى أفق السماء حتى تراحم مناكب الكواكب، وقال: أنا لسدّ هذه الخلة أنا لها، أفرج كربتها وأفتح مقلها، وأصلح خللها وأزيج عللها، ولم تدخرنا السلطنة الشريفة الخاقانية، ولا ربّتنا العواطف الكريمة العثمانية، إلا لنبذل أرواحنا

وأموالنا في مثل هذه الحوادث، وندفع عن المسلمين ما يصابون به من المصائب الكوارث، فقابله السلطان الأعظم بالشكر منه والثناء عليه، وشرفه بالالتفات الشريف السلطاني إليه، وجعله سردار العساكر المنصورة، وأمره بالتوجه إلى قهر النصارى المقهورة، وأمر أن يتوجه معه لمساعدته ومعاونته، ودفع ملالته وسأتمته، وضبط العساكر البحرية، وترتيب السفائن الحربية قابودان الباب العالى، فارس ميدان البحر السابق إلى قلّة أبراج المعالى، الأسد الضرغام، والليث القمقام، والصارم الصمصام، أمير الأمراء العظام، حضرة قلع على قابودان^(١) باشا، يسّر الله له من الفتوحات ما شاء.

فشرعاً في أخذ أسباب السفر، وأخذاً معهما من أمراء السناجق وشجعان العسكر كل أسد غضنفر، وكل باسل معقود بناصيته أسباب النصر والظفر، ممن له في حرب البحر اليد البيضاء والمعرفة التى يتصرف بها فى الماء والهواء، وشحنوا مائتى غراب^(٢) تطير بأجنحة القلاع، وتهدم بما فيها من المدافع محكمات الحصون والقلاع، وعدة من المؤنات الكبار لحمل الأثقال، ورفع الأحمال الثقال، وشيل مكاحل النحاس لحطم الثغور، وهدم السور والجسور، إلى الأساس، وكثرة التخويف والترهيب وشدة القوة والبأس.

وكان يوم بروز العسكر المنصور من القسطنطينية العظمى يوماً عظيماً مشهوداً، وساعة مباركة أظهرت يُمناً وبركةً وسُعوداً، وكان الجمع المنصور جمعاً مباركاً مسعوداً، وذلك فى غرة شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

وركب الوزير المعظم سردار العساكر حضرة الباشا سنان والقابودان، والعساكر المنصورة بنصر الله الملك الديان، ثبج البحر كأنهم طوفان فوق طوفان، وطارت بهم الأغرابة على وجه البحر أقوى طيران، وتلّت ألسنة

(١) قابودان: معناه أمير البحر، استعمله العثمانيون منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى مركباً مع غيره بلفظ: قابودان باشا كلقب أطلقوه على قائد الأسطول.

(٢) غراب: من أنواع المراكب البحرية سُمى بذلك لأن مقدمته تشبه رأس الغراب.

الغزاة^(١) وقال: اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها، فوصلوا إلى ليان ناارين واستمروا سائرين في البحر حتى وصلوا إلى ماللو كليسان من مملكة البندقية، فوصلوا في يوم الخميس لخمس مضي من شهر ربيع الأول ليان الخير، واستقروا بها ليلة الجمعة وأصبحوا متوجهين والسعد يخدمهم والنصر والفتح والظفر يرافقهم ويقدمهم، وقد عبروا بسفائنهم إلى العُمان وما أمكن لغيرهم من العساكر عبور العُمان بهذه السفائن الكثيرة خوفاً من تصادمها عند شدة تموج البحر، ولكن الله تعالى يسلم من أراد لا دافع لمراده ولا راداً وهو على كل شيء قدير.

فساروا تارة بالقلوع وتارة بالكورك على وجه ذلك البحر الواسع إلى أن ظهرت لهم في اليوم الثامن جبال قلاورية، واستمروا كذلك إلى أن وصلوا وقت الظهر في اليوم التاسع إلى طُبرق حصارى وهو حصار منيع للكفار على ساحل البحر، فلما وصلت العساكر المنصورة الإسلامية إلى ذلك المكان حاربهم الكفار الملاعين فدهكهم العسكر المنصور دهكاً، ودكوا من تحت أرجلهم الأرض دكاً، فهربت الكفار إلى قلعة حصينة تسمى نحية.

ووقع قتال عظيم استشهد فيه من رُزق سعادة الشهادة، وأعطاه الله في جهاده الحُسنى وريادة، منهم كتخداء حضرة القابودان سنجق قره جه أيلى محمد بك، نزل من سفينته مشتاقاً إلى الجهاد في سبيل الله، فأصابته بندقية في خده نفذت من الجانب الآخر، واستمر صاحب فراش خمسة أيام ثم تلت عليه الملائكة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فانتقل إلى رحمة الله شهيداً، ومضى إلى دار الآخرة سعيداً.

ثم رمى وقت المغرب مدفع لإعلام الغزاة بالعود إلى سفائنهم للمسير، فحضرُوا وركبوا فرُفعت القلاع وصاروا يسيرون تارة برفع القلاع وتارة بالكورك إلى أن وصلوا في اليوم الرابع عشر إلى جزيرة مسينة، فاستقروا بها

(١) في ل: «الغزاة» والمثبت من م.

قليلاً عسكر المسلمين ثم ساروا فلما وصلوا إلى محاذة حصار سرافون حصلت فرتونة في البحر تفرقت بسببها السفائن من الضحى إلى آخر النهار، ثم اجتمعت وقت العشاء في محلّ يقال له كير، ثم مروا بقلل يان فحوصرت وهُدّمت قلعتها وقتل من بها من النصارى، ثم ساروا فلاحت قلعة أولا ووصل إليها بعض العسكر المنصور ونهبوا ما وجدوا بها من الذخائر وقتلوا من ظفروا به من النصارى وعادوا إلى سفائنهم، وصاروا ينزلون لأجل السقية كل يوم إلى جانب من ساحل صجلية، وكلّما وصلت يدهم إليه من نهب وغارة وقتل وأسر لطائفة الكفار بادروا إليه وأخربوا قُراهم ودورهم وبساتينهم وعادوا إلى سفائنهم.

فاجتمع كلُّ من في ذلك الساحل من النصارى من فارس وراجل فصاروا عسكراً وأقدموا على قتال من ينزل إلى البرّ من المسلمين، فخرج إليهم من السفائن بعض البحارين والكوركجية^(١) وبعض من في نيته الجهاد في سبيل الله فقاتلوا الكفار وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وفرّ الباقيون، ولم يعهد للملاعين مثل هذه الهزيمة والخسران وذهب أرواحهم وأموالهم وأسر أولادهم ونسائهم قبل الآن، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى.

ثم أطلق المسلمون النار في تلك السواحل وأحرقوا أشجارها ودورها وقصورها وعجلوا بأهلها إلى نار جهنّم وساءت مصيرها.

وفي اليوم السادس عشر من شهر ربيع الأول ظفر عسكر الإسلام بسفينة للنصارى مشحونة بالقمح كانت متوجهة إلى بعض قلاعهم، فاغتمت المسلمون ذلك، وكان أخذها فالاً حسناً للمسلمين.

وفي اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور وصلوا إلى جهودا واسى وطاب الريح للمسلمين فوصلوا إلى قلعة خراب في أرض تونس قريباً من قالبية بُورنى وهى على ثمانية عشر ميلاً من مدينة تونس، فزينت السفائن والأغربة

(١) الكوركجية: طائفة من عمال السفن كانت في العهد العثماني تعمل في مجال نظافة مراكب الأسطول.

بالرايات المصبوغة ألواناً إظهاراً لهيبة الإسلام وعنواناً للعساكر المنصورة العثمانية، فأرسوا في اليوم الرابع والعشرين في جزيرة حلق الواد ونزلت العساكر المنصورة السليمية ونصب أوطاق حضرة الوزير المعظم والقابودان المكرم على مسافة لا تصل المدافع من قلعة حلق الواد إليها ونزلوا المدافع الكبار التي إذا رمى بها تزلزلت الجبال وتهدمها وتخرب الأطواد الكبار وتحطمها، وشرعوا يتقربون قليلاً قليلاً إلى القلعة وبينون لهم متاريس يتترسون بها ويسوقون الأتربة أمامهم ويتسترون خلفها ويحفرون خنادق ينزلون فيها كيلاً تصيهم المدافع ويتقدمون ويدنون من القلعة على هذا الأسلوب إلى أن أحاطت العساكر المنصورة بقلعة حلق الواد، وتقدموا بالبنادق وآلات الجهاد، ونصبوا بقرب القلعة المنجنيقات والمدافع، ووجهت إلى صوب الكفرة أفواه المكاحل الكبار والمصانع، وبرز حضرة الوزير المعظم ستان باشا محفوقاً بنصر الله يخوض هول الموت وهو يراه محتسباً نفسه في سبيل الله معتمداً على عون معين نصير تسجد لعظمته الجبأه، وأقدمت العساكر المنصورة بصدق اعتقادها وثبتت النصارى بغلظ أكبادها وشدة أحقادها، وتراموا بالمدافع الكبار التي هي من أشد الصواعق، وأخطف للأسماع والأبصار من الرعود والبوارق، تخطف ما صدفت من النفوس والأرواح، وتمزق ما صدمت من الهياكل والأشباح، وتفكك اللحم عن العظم، وتذيب الشحم وتسيل الدم، والعساكر المنصورة مقدمون على هذه الأهوال، ثابتون ثبات الأطواد والجبال، على الحرب والقتال، والجلاد مع المشركين والجدال، إذ وصل الخبر بوصول بكربكى تونس المولى عليها من قبل السلطنة الشريفة العثمانية السليمية أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء المجاهدين العظام، حيدر باشا وكذلك بكربكى طرابلس الغرب أمير الأمراء العظام، كبير الكبراء الكرام، ذو القدر والعظمة والاحتشام، مصطفى باشا أيدهما الله تعالى بالنصر والتأييد، وظفرهما على كل كافر عنيد.

وكانا وصلاً قبيل وصول العمارة الشريفة السلطانية من البر إلى مقدار

نصف يوم عن تونس بقصد محاصرتها وأخذها، فلما علم البكلربكيان بوصول العمارة السلطانية إلى حلق الواد، واشتغال العسكر المنصور السلطاني بالجهاد، وصلاً ليلاً بالخفية مع قليل من الغلمان إلى وطاق سردار العمارة المنصورة الوزير المعظم الباشا سنان واجتمعا به وفرح كل منهم كمال الفرح وحصل لهم الاطمئنان وطلبوا منه الإمداد والإعانة على أخذ تونس، وما أمكن الوزير المعظم سنان باشا أن يتوجه معهما بنفسه فأمر طائفة من أمرائه وعين نحو ألف نفر من التوفكجية^(١) وبعض المدافع الكبار والضربانات أن يتوجهوا مع البكلربكيين إلى محاصرة تونس وأخذها من النصارى الفجار، وأرسل معهما من أمراء السناجق فخر الأمراء العظام إبراهيم بك ثم سناجق مصر المحروسة، وسنجق قرشتى محمود بك، وسنجق قره حصار بكر بك، ومقدار ألفي نفر من طائفة كوكللو^(٢) مع أغاهم حبيب بك، فتوجهوا في الحال مع حيدر باشا ومصطفى باشا وأحاطوا بتونس.

وكان سلطانها الموالس مع النصارى أحمد الحفصى ومن معه من النصارى رأوا أنهم عاجزون عن حفظ تونس لسعتها، ورأوا أن قلعتها أيضاً خراب متهدمة لا تصونهم، فخرجوا من تونس إلى رملة بقربها يقال لها قوملودكز يعنى بحر الرمل، وعملوا بها حصاراً من الخشب حشوه بالرمل والتراب وتحصنوا فيه وكانوا نحو سبعة آلاف مقاتل ما بين كفار ومرتدين ومردة من النصارى المخذولين، وشحنوا هذا الحصار بالآلات الحرب والمدافع والذخائر ونحو ذلك.

فلما خلت تونس من أعداء الدين، فتحها عساكر المسلمين، وضبطوها وحصنوها، ثم برزوا إلى قتال أولئك الملائع وحاصروهم في قلعتهم التي أحدثوها وأحكموها بالألواح والأخشاب والطين، وأرسلوا خبر ذلك إلى سردار عساكر المسلمين الوزير المعظم سنان باشا، فأرسل لنصرتهم وإمدادهم

(١) التوفكجية: صنف من العسكر العاملين في الجيش العثماني، وهم من المشاة المسلحين بالبنادق.

(٢) كوكللو: بمعنى المتطوع.

وإعانتهم القابودان المعظم والبكلربكى المفخم قلعج على باشا المكرم، فتوجّه بطائفة من المسلمين من العساكر المنصورة إلى إعانة بكلربكى تونس حيدر باشا وبكلربكى طرابلس الغرب مصطفى باشا ومن جهّز معهما من العساكر سابقاً وهم محيطون بالقلعة التي تحصّن بها الكفار الأشقياء والعربان المرتدون.

فرأى قلعج على باشا صعوبة أخذ القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة فطلب عسكرياً آخر وعدة مدافع أخرى من الوزير المعظم سنان باشا فأرسل إليه ألف يكيچرى^(١) وصمصونجى باسى، ومن سلحدارية الباب العالى على آغا، وجهّز معهم ثمانية مدافع وستة ضربانات ولحقوا بالقابودان أوج على باشا، وأحاطوا بقلعة الكفار وبنوا المتاريس من كل جانب، ومع ذلك كانت الكفرة الملاعين ومن ارتدّ من عربان تونس فى غاية الكثرة والقوة، ومعهم الخيول فخرجوا من القلعة مراراً وهجموا على عساكر المسلمين عند المتاريس فى جهة من جهات القلعة وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً وعادوا إلى قلعتهم، واستشهد فى ذلك كثير من المسلمين وانتقلوا إلى رحمة الله تعالى فى أعلى عليين^(٢).

فلما بلغ حضرة الوزير المعظم ما فيه عساكر المسلمين من الشدة جاء بنفسه إليهم، فإن المسافة قريبة وعساكر السلطنة محيطة بقلعة حلق الواد والحرب قائمة على حاله، فتوجّه حضرة الوزير إلى تلك القلعة المحصورة بقرب تونس وشاهدها ووزع على جوانبها عساكر المسلمين وقوى جأشهم وعين فى كل موضع طائفة وأشار على القابودان والبكلربكية بما رأى فيه الصواب وطمّنتهم وشدّ قلوبهم وعاد من يومه إلى حلق الواد لاحتياج عساكر المسلمين إليه فى هذه الجهة أيضاً.

واستمرّ كل من الفريقين فى مجاهدة الكفار، وهم على الثبات والقرار،

(١) يكيچرى: بمعنى العسكر الجديد.

(٢) المنح الرحمانية ص ١٩٩.

لا يسأمون من مصادمة النار، ولا يخافون من الموت لأنهم مقدمون على جنة الخلد ومُلْك لا يَبْلَى، طالبون درجة الشهادة من الله الأعلى.

ووصل في أثناء هذا بكلربكى الجزائر سابقاً أمير الأمراء العظام أحمد باشا لإعانة عسكر الإسلام، وأقبل على حضرة الوزير المعظم واستأمر لما يأمره به فأعطاه عدّة من المدافع وعيّن له جهة الجنوب من حلق الواد فتوجّه إليها وبنى المتاريس فيها وجاهد في الله حقّ جهاده، وأقدم على قتال الكفار وألقى إلى الحرب مقاليد قياده، فوصل العسكر المنصور إلى حافة خندق الكفار بعد أربعة عشر يوماً وبنوا على حافته المتاريس، وكان الكفار قد نقبوا تحت الأرض نقباً طويلاً وصلوا به إلى موضع كان كمرك خانة^(١)، وفيه قلّة بُرْج يصلح للتخفّظ والتحصّن فيه، فوصلوا إليه من تحت الأرض وملئوه من الرجال وآلات الحرب، ففطن المسلمون لذلك وكان قريباً من الجانب الذى فيه حضرة الوزير، فتوجّه إليه بنفسه النفيسة ووقع فيه حرب شديد، وأخذت القلّة وقتل من فيها من النصارى المخذولين، فأرسل حضرة الوزير بالليل من يقيس عمق الخندق الذى وصل إليه العسكر المنصور فكان عمقه ستين ذراعاً بذراع العمل وقعره متصل بالبحر مملوء بماء البحر، فتشاور الوزير مع الأمراء وأصحاب الرأى فى ذلك، فما وجدوا لذلك حيلة غير أن يملئوا الخندق بالتراب وتبني عليه المتاريس، فأمر الوزير المعظم سائر العسكر بذلك فشرعوا فى نقل التراب من خلف المتاريس، وباشر حضرة الوزير المشار إليه ذلك ونقل بيده الشريفة التراب، ابتغاء لمرضات الله العزيز الوهّاب، ونصرة لدين الله وتأييداً لملة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، ورأى الأمراء ذلك فبادروا بأنفسهم إلى نقل التراب، ورأى العسكر المنصور ذلك فهمّوا غاية الاهتمام وأقدموا نهاية الإقدام وحملوا التراب كأمثال القباب، ورموا بها فى الخندق إلى أن امتلأ وراد فى الارتفاع، فبنوا المتاريس فوق ذلك إلى أن اعتلوا على

(١) كمرك: كلمة تركية معناها: جُعل يؤخذ على البضائع الواردة من البلاد الأخرى: يقابلها: مكس، دخلت العربية منذ العهد العثماني، والبعض ينطقها اليوم بلفظ: جمرک.

الحصار وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، فصارت مدافع المسلمين تصل إلى وسط قلعة الكفار، وتقتلهم وتحرقهم بالنار، وتسوقهم إلى جهنم وبئس القرار.

ووصل فى هذا الأثناء بكلربكى الجزائر المتولى عليها إذ ذاك أمير الأمراء العظام رمضان باشا ومعه ثلاثة آلاف مقاتل، واجتمع بحضرة الوزير المعظم وطلب منه خدمة يؤديها فأرسله بمن معه من عسكر الإسلام إلى إعانة المسلمين الذين حصروا الكفار بالقلعة التى بقرب تونس، فتوجه إليها ونزل فى جهة من جهاتها وحطّ عليها مع من هناك من البكلربكية والأمراء، والغزاة والمجاهدين والكبراء، واستمرّ حضرة الوزير فى محاصرة قلعة حلق الواد، والاستيلاء على من فيها من أهل الكفر والعناد، وأقدم المسلمون على الدخول إلى الحصار، لما شاهدوا وهن الكفار، وحمل الوزير المعظم بمن معه من الأبطال، حملة واحدة تزلزلت الجبال، وحمل من فى الجهات الثلاث من العسكر والأمراء والرجال، فدخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال، لست مضمين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ووضعوا السيف فيمن وجدوه بها من الكفار الفجار، وساقوهم بالنار إلى عذاب جهنم وبئس القرار، وغنموا ما وجدوه بها من آلات الحرب ومن الذخائر وغير ذلك، واستؤسر صاحب القلعة كبير النصارى المخدولين، وكذلك أسر سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصى وحبسهما وقيدهما حضرة الوزير وأمر بقتل سائر من وجد من النصارى والعرب المرتدين.

وفرّح بفتح هذا الحصن الحصين، كافة أهل الإسلام والمؤمنين، واستبشروا بهذا الفتح والنصر المبين، فإنه يُعدُّ من أجلّ فتوحات الإسلام، وأعظم التأييدات لدين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكانت هذه القلعة من أحكم القلاع التى أحكمتها النصارى اللئام، وأقواها فى المكنة والاستحكام، وأشدّها ضرراً على أهل الإسلام، ومن عجيب الاتفاق أن هذه القلعة المنكوسة بنتها النصارى المخدولين فى سنة

ثمان وثلاثين وتسعمائة، وأكملوا استحكامها في ثلاثة وأربعين سنة، وافتتحها حضرة الوزير المعظم سنان باشا في ثلاثة وأربعين يوماً من أيام محاصرتها بعدد السنين التي أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة.

فلما تمّ هذا الفتح المبارك رأى حضرة الوزير أن ترميمها وإعادةها وحفظها بالأسلحة والآلات الحربية يحتاج إلى مؤنة كبيرة، وخزائن من الأموال كثيرة، مع قلّة جدّواها، لبُعدها عن الباب العالي وطول مداها، قرأى أن الأولى هدمها وتخريبها حتى لا تصير للنصارى المخذولين مكمناً ولا مأوى يتحصنون فيه، فأمر بهدمها، فهدموها حجراً حجراً وتركوها خراباً لا أثر، وأعملت المعاول في رأسها، إلى أن وصلوا إلى أساسها، فصارت طلالاً من الأطلال، ودمنة يلعب فيها هبوب الصبا والشمال، ولا يسمع فيه ندا أو صدا، إلا صياح بوم أو صدا، ولم يبق بها أنيس، إلا اليعافير والعيس.

وأرسل حضرة الوزير المعظم بشائر النصر والفتح المتوالى، إلى جهة الباب الشريف العالي، وإلى سائر بلاد الإسلام، ليأخذ المسلمون حظهم من هذا البشر التام، والفرح الشامل العام، ويفرح المؤمنون بنصر الله والملائكة الكرام، ويدعوا بدوام دولة هذا السلطان الأعظم، نصره الله وخلّد ملكه على الدوام.

وهذا دعاء لا يردُّ لأنه يزان به كل الورى والممالك

تراه بلا شكّ أجيب لأنه إذا ما دعونا أمّته الملائك

وتوجه البشير كأنه الصبح الصادق، ينشر على الخافقين رايات النصر والخوافق، ويملاً برايات الفرح أقطار المغرب والمشارك.

وكوكب الصبح نجاب على يده مخلّق تملأ الدنيا بشائره

ثم لما فرغ حضرة الوزير مأربه من حلق المواد، وفعل في تلك الوهاد والمهاد، والأغوار والأنجاد ما أراد، توجه بعساكره المنصورة إلى تونس، لتطمئن بطاعته الغراء من بها من عسكر المسلمين وتونس، فوصل إليهم وهم محاصرون قلعة النصارى المخذولين، مجاهدون مجتهدون في أخذ أولئك

الملعونين، ففرح بوصوله البكلاريكية الذين يحامون لنصرة الدين، واشتدّ أزرهم وقوى جأشهم على قتال المشركين، وقد نشأوا على الطعان والقراع، كما نشأ الأطفال على الرضاع، وضروا بدماء الكفار ضراوة الأسود والسباع، بما تفترسه من الصيد وهي جياح، وحمل بإقدامه حضرة الوزير المعظم، على من في القلعة حملة الأسد الغشمشم، وتسابقت العساكر المنصورة إلى استئصال أعداء الدين سبق السيل الغمطم، وتعلقوا بأطراف الحصار، وصبروا على حرّ السيف والنار، واستشهد كثير من المسلمين الكرام، وقُتلوا في سبيل الله وهم أحياء لا أموات عند الله في دار السلام، واستمرّ عساكر المسلمين على الإقدام، على الموت الزؤام، وحدّ السيف والحسام، إلى أن دخلوا القلعة ونصبوا الرايات الشريفة على أعلى القلعة فأقدمت بقية العساكر الإسلامية وهجمت على الدخول إلى القلعة فدخلوها ووضعوا السيف في الكفار عبدة الصليب وقتلوا منهم ثلاثة آلاف دارع مغلغل من فرقه إلى قدمه في سابغات الحديد، ورمى نفسه الباقون من أعلى القلعة إلى أسفلها وهم زهاء خمسة آلاف نفس نزلوا على أقدامهم في الرمل وهربوا مقدار رمية سهم أو سهمين، وشرعوا في التترس بأتربة ورمال أرادوا أن يتحصنوا بها والمسلمون مشغولون بقتل من بقى في القلعة ونهب الأمتعة والأسلاب والأسباب، فوجد بها أخشاب وألواح أعدّها الكفار لإتقان القلعة وإحكامها وبارود كثير ومدافع ولبوسات وآلات الحرب وبكسماط كثير لأزوادهم.

وكانت القلعة بسبب العجلة غير محكمة البناء وأعجلتهم العساكر المنصورة السلطانية الإسلامية عن إتمام إتقانها وإتقان استحكامها، فلو تأخر ورود العساكر السلطانية عنهم في ذلك العام لكانوا أتقنوا القلعة إتقاناً قوياً، وكان لا يقوى عسكر الإسلام على فتحها بعد ذلك، ولكن خذل الله تلك الطائفة الملعونة المعكوسة أينما ثقفوا بوصول حضرة هذا الوزير المعظم بهذا الخميس العرمرم في ذلك العام قبل استيفاء استحكام القلعة غاية الإحكام، وكان

ذلك ييمن سعادة طالع السلطنة الشريفة العثمانية وحسن اهتمام هذا الوزير المعظم ولطف تدبيراته العلية ودقة آرائه الثاقبة الجليلة.

ثم أمر حضرة الوزير أن تستعقب العساكر الإسلامية أولئك الهاربين من الكفار فتبعوهم ووجدوهم قد شرعوا في عمل مكان يتحصنون فيه فهجموا عليهم هجمة واحدة، فتيقن الكفار أن لا مفرّ لهم ولا محيص فقاتلوا أشدّ القتال، وقاتلهم المسلمون بالنصال، وصار الوجه في الوجه والناب في الناب، والسيوف المسلولة من القراب، تغوص في الرقاب، والخناجر تدقّ في اللباب والخناجر حتى سالت الدماء كالسيل العباب، إلى أن أثبت كافر تلك الرمال شقيقًا، وصير أحجار الفلاة عقيقًا، وضرب النقع في السماء طريقًا، وجند الله على كل حال هم الظافرون، والكافرون هم الصاغرون، وصبّ من دماء أولئك الأرجاس ما نجس به البحر على طهارته، والبر على سعته والرمل على غزارته، وقتل الكفار عن آخرهم قتلاً ذريعًا، وشكر المسلمون ذلك لله عزّ وجلّ صنيعًا، وانتصر على النصارى أهل ملّة الإسلام، الذي بعث الله به رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، إلى كافة الأنام.

وعاد حضرة الوزير المعظم ظافرًا منصورًا، غائمًا مسرورًا، مثابًا مأجورًا، وغنمت العساكر المنصورة السلطانية، والجيوش الموفورة الإيمانية، ما تكلّ عن حصّره أنامل التحرير، وتضيق عن ذكره أدراج الأساطير، وجهّزت البشائر إلى الأبواب الشريفة السلطانية، والأعتاب المنيفة العثمانية، وتطايرت أخبار هذه البشارة إلى سائر المسلمين في الآفاق، تخفق على الخافقين أجنحة السرور والبشر الخفاق، ما بين حدود الغروب والإشراق.

ولولا لطف الله تعالى بأهل الإسلام لكان البلاء عامًا على سائر بلاد المسلمين، فإن مولانا السلطان الأعظم الأفخم سليم خان لو لم يهتم بدفع هذه الكفار الملاعين لكانوا يتسلّطون على أخذ تونس وأخذ الجزائر كلّها وكانوا يحكّمون قلاعها وأسوارها وحصونها وحصارها غاية الأحكام، وكانت ترتدّ عن الإسلام عربان المغرب وتتقوى الكفار الفجار على أخذ

مصر وغيرها من ديار الإسلام، لا بلغهم الله ذلك المرام، وأنزل عليهم الخزي والخذلان والنكال إلى يوم القيام.

وقد أعان الله سلطان الإسلام، لدفع أولئك الكفرة الطغام، ومزقهم كل ممزق بالسيف والسنان والحسام، وشئت شملهم ومزق جمعهم فلا يقوم لهم رأس بعد ذلك، فالله تعالى يشكر لتأييد الإسلام صنيع هذا السلطان الأعظم السلطان سليم خان، صاحب هذه الهمة العالية والقوة والأيدى الحسان، ويجازيه عن الإسلام والمسلمين خيراً دائم الفيضان، ويشكر همة هذا الوزير المعظم العالى الشأن، على نصره أهل الإيمان، ويجزيه أعظم جزاء على هذا الفتح العظيم بحدّ السيف والسنان.

وكان هذا الفتح الأخير فى يوم الخميس المبارك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وقُتل فى القلاع الثلاث، من الكفرة الخباث، عشرة آلاف مقاتل ساقهم الله تعالى إلى النار، وقد استشهد من الغزاة الأمجاد والمجاهدين الأنجاد ما يوازي عشرة آلاف غاز، ومن أعيان أمراء السناجق من أمراء الأكراد خضر بك وسنجد ابنه بختى مصطفى بك وسنجد مملكة مدلو پرويز بك وسنجد بورك مصطفى بك وسنجد أولونية أحمد بك وسنجد ترخان بايزيد بك وسنجد إسكندرية صفر بك وكتخداة الينكجيرية فرهاد كتخداة ورأس زمرة اليايا^(١) وكثير من الزعماء وأرباب التيمار^(٢) وغيرهم عدّة عديدة، وأعطى حضرة الوزير الأمان لطائفة من الكفار رأى فى ذلك مصلحة توازي زهاء مائتى نفر برزوا فى أمان حضرة الوزير وأخبروه بأمر مهمّة كان يريد الاطلاع عليها، منها أن عندهم من المعلمين الأستاذين فى عمل الطوب الكبار التى يعجز جميع الكفار عن عمل مثلها،

(١) يايا: طائفة من الجند، كانت قبل تشكيل فرقة الانكشارية، وكانوا جنوداً دائمين يتقاضون راتباً، وفى أثناء الحرب كان الواحد منهم يتقاضى يومياً آقچتين، أما بعد الحرب فينتشرون فى بلادهم ويشغلون بالزراعة.

(٢) أرض زراعية كان سلاطين العثمانيين يمنحونها لمن يتعهدون بتقديم عدد من الفرسان للدولة عند قيام الحرب، وكان عدد هؤلاء الفرسان على حسب ما تغل هذه الأرض.

ماتتى نفر وخمسة أنفار ممن لا نظير لهم فى هذه الصنعة فأمنهم وطلبهم وأخذ بخاطرهم وأعطاهم الأمان على أنفسهم، وشرط عليهم أن يسبكوا دائماً النحاس ويجعلوها مدافع كباراً، ويعمل لهم علوفة وتوضع فى أرجلهم القيود ويكفل بعضهم بعضاً فرضوا بذلك وطلبوا الأمان على هذا الشرط.

فكساهم الوزير وكتب لهم علوفات على حسن مراتبهم وصاروا من خُدَّام الترسخانة^(١) السلطانية موكلًا عليهم من يحفظهم ويتيقظ لهم ويستخدمون فى الخدم السلطانية ويسبكون النحاس للطوب الكبار والمدافع العظام.

وظفر حضرة الوزير المعظم فى قلعة حلق الواد وقلعتى تونس المأخوذتين بماتتى مدفع وخمسة مدافع كبار، واستولى عليها كلها وترك فى حصار تونس منها خمسة وثلاثين مدفعًا لحفظ تونس من الكفار الفجار، وأرسل مائة وثمانين مدفعًا من أكبر المدافع العظيمة إلى الباب الشريف السلطانى ليستعان بها على قتال الكفار الملاعين، إذا جهز عليهم العمائر فى كل حين.

ثم لما فرغ حضرة الوزير المعظم الكبير، من هذا الفتح العظيم والمغنم الكثير، أنعم على من فى ركابه الشريف من الأمراء والكبراء والبيكارىكية وسائر الزُعماء وأرباب التيمار وبلوكات العساكر المنصورة وأرباب الجوامك والعلوفات بالترقيات العظيمة والمناصب الكبيرة، كل أحد بمقدار سعيه واستحقاقه ومرتبته، وعرض ذلك على سرير السلطنة الشريفة، وكان مقداراً كبيراً من الخزائن العامرة، فقبول جميع ذلك بالقبول، ووقعت مواقع الإجابة فى المأمول والمسئول، وذلك فى مقابلة ما بذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله وجاهدوا فى الله حق جهاده ونصروا المسلمين والإسلام، وأنعمت السلطنة الشريفة على حضرة الوزير المعظم بأنواع الإنعامات السنية، والترقيات الكثيرة العلية، والخلع الفاخرة البهية، والتشريفات الزاهرة السلطانية، فى مقابلة سعيه فى نصره الدين، وبذل أمواله للُغزاة والمجاهدين،

(١) ترسخانة: بمعنى دار المسيحيين، لأن هذا الموضع كان فيه معقل الأسرى المسيحيين، وأمام هذا الموضع أقيمت مصانع السفن وما يتبعها من إطارات.

وأخذ ثأر المسلمين من الكفرة والمشركين، على وجه لم يقع في كثير من الزمان، مثل هذا الفتح العظيم الشأن، وذلك بمحض الإعانة الربانية، والنصرة الإلهية السبحانية، والله الحمد على نصرة الإسلام، وتأييد دين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

ثم عاد حضرة الوزير المعظم، المنصور المكرم، خلد الله عليه سوايح النعم، إلى الأبواب الشريفة السلطانية بمن معه من عسكر الباب الشريف السلطاني وأذن لغيرهم من العسكر المنصور وسائر الأمراء والبعلاربكية بالعود إلى أوطانهم وأماكن حكومتهم مجلّلين محترمين مجبورين منصورين سالمين غانمين، واستمرّ حضرة الوزير المعظم إلى أن ورد إلى الباب الشريف العالی السلطاني، وقبل قوائم سرير الملك الشريف العثماني، فقبل بأنواع البشر والتّهاني، وشمله النظر الشريف الخاقاني، ونظرت إليه السلطنة بعين القرب والتداني، وأفرغ على كاهله مرة بعد أخرى خلع التشريف الحسرواني، وقبل كلّ ما عرضه حضرة الوزير المعظم المشار إليه على الأعتاب الشريفة السلطانية من المطالب، وأنعمت عليه السلطنة الشريفة بكلّ ما قصد فيه من المقاصد والمآرب.

وكان يوم دخوله إلى إسطنبول يوماً عظيماً مشهوداً، ووقت حلّوله في منزله السعيد وقتاً مباركاً مسعوداً، وازدحمت الخلق على مشاهدة طلّعه، والتبرّك بوجهه الكريم وميمون غرّته، وصاروا يتبرّكون بالنظر إلى المجاهد في سبيل الله ويطلبون الدعاء منه وتمنّ معه من المجاهدين والغزاة والأسارى من النصارى يقادون بين يديه بالسلاسل والأغلال، مقرّنين في الأصفاد بشديد الذلّ والنكال.

ودخلت سفائن العمارة العامرة وأغربتها إلى الاسقالة، مزينة مزخرقة بالبيارق والسناجق، تخفق عليها رايات الفرع بالنصر والظفر والجلالة، وأطلقت المدافع للفرح فزلزلت الأرض لرزالتها، وكادت أن تصمّ الآذان فلا تسمع الناس مقالها.

وعساكر الباب الشريف السلطاني وردت صفوفًا بعد صفوف، وتعاطفت عاطفة عائدة بالنصر والتأييد أُلوفًا بعد ألوف، ودخل أيضًا القابودان المعظم المجاهد الكريم الأفخم، حضرة قلج على باشا المكرم، لا زال في حرب البحر مظفرًا منصورًا مسعود القدم، فقوبل من الحضرة الشريفة السليمية بغاية القبول والإقبال، وخطوب بلسان الشكر والتعظيم والإجلال، وأنعم عليه بسائر مقاصده ومطالبه، وجعل له غاية ما يتمناه من سؤله ومآربه، وحصل لسائر العساكر المنصورة الإحسان الموفور، وشكر لهم سَعِيَهُم المشكور.

وأعظم من ذلك ما حاروه من الأجر العظيم، والثواب الجزيل الجسيم، وناهيك بهذا الغزو الفخر، وقد بقي لهم هذا الذكر الجزيل على صفحات الدهر، والله تعالى يديم هذه الدولة الشريفة العثمانية على تداول الليالي والأيام، ويحمي بحمايتهم كافة المسلمين ويؤيد بتأييدهم ملة الإسلام، ويبقى أيام سلطنتهم القاهرة على الدوام إلى يوم القيام، فكم لهم ولأسلافهم الغزاة والمجاهدين، في نصره الملة الحنيفة الغراء من يد بيضاء آية للناظرين، وكم فتحوا بلاد الكفر وصيروها دار الإسلام على رغم المشركين والكافرين، وتكاد تلتحق فتوحاتهم بفتوحات الصحابة رضی الله عنهم.

ولقد حكّت علماء أئمة الإسلام، واتفق قول الأئمة الأعلام، رضوان الله عليهم أجمعين، وشملهم برحمته إنه أرحم الراحمين: أن سيوف الحق أربعة، وما عداها للنار: سيف رسول الله ﷺ في المشركين، وسيف أبي بكر رضی الله عنه في المرتدين، وسيف على رضی الله عنه في الباغين، وسيف القصاص بين المسلمين.

أقول: وسيوف بني عثمان رحمهم الله وأبقى الملك كلمة باقية فيهم وفي عقبهم إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى إذا اعتبرتها وتأملتها لا تخرج عن هذه السيوف الأربعة، فإنهم ما زالوا من أول أسلافهم رحمهم الله إلى الآن يغزون الكفار والمشركين، ويقاتلون الملحدين والباغين، ويقومون شعائر شرائع الدين، فالله تعالى يمدّ ظلال سلطنتهم على المسلمين، ويؤيد بهم

أهل السنَّة ويقمع بهم كافة الملحدِّين، وهذا دعاء يجب أن يدعو لهم به جميع طوائف المؤمنين، فإنهم عماد الإسلام وقوَّام هذا الدين المتين، وسبب قيامه بين الأنام، والدعاء لهذه السلطنة الشريفة دعاء لكافة أهل الإسلام، وإعزاز لدين الله تعالى ونصرة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وتأمين البلاد وتطمين العباد، وتوهين أهل الفساد، وقطع جاذرة أهل الإلحاد، وقمع جميع أرباب البغى والعناد.

فصل فيما جدده المرحوم السلطان سليم خان، من الخير والإحسان، زيادة على والده المرحوم السلطان سليمان خان، تعمدهما الله تعالى بالرحمة والرضوان

وذلك في أول سلطنته الشريفة أمر لأهل الحرمين الشريفين أن يزداد لهم سبعة آلاف أردب حبّ من صدقته المقبولة المبرورة زيادة على ما كان يرسله والده المرحوم لهم في كل عام، فكانت تحمل في كل سنة من الأنبار الخاصة السلطانية على ظهور الجمال من مصر إلى السويس وتوضع في سفائن الدشايش الشريفة السلطانية من السويس إلى بندر جدة وإلى ينبع وتوزع على الفقراء، وكان برز أمره الشريف العالی أن يضاف ثلاثة آلاف أردب منها إلى الدشيثة العامة السلمانية لفقراء المدينة الشريفة وتوزع عليهم، وأن تضاف ثلاثة آلاف أردب إلى الدشيثة العامة السلمانية لفقراء مكة المشرفة وتوزع عليهم وأن توزع خمسمائة أردب على الفقراء المنقطعين بالينبع العاجزين فيها عن السفر إلى المدينة الشريفة فيستعينون بها على التوجه إلى حيث أرادوا، وتوزع خمسمائة أردب على فقراء جدة المنقطعين بها العاجزين عن التوجه إلى مكة لأداء حجّ الفرض أو النفل، وذلك مقصد جميل للمرحوم، فكان الفقراء يتوسعون فيها ويرتفقون بها وكانت ترد إليهم في كل

عام من أعوام سلطنته الشريفة وكان الدعاء له مبدولاً من سائر الفقراء المحتاجين المضطربين وكان يحور بذلك ثواباً جزيلاً، وأجرًا وافيًا جميلاً، رحمه الله رحمة واسعة، وأثابه المثوبة العظمى في الدرجات الآخرة، على مقاصده الجميلة وخيراته الوافرة الجزيلة.

ومنها أيضاً ما كان يتصدق به على فقراء الحرمين الشريفين أيام كان شاه زاده قبل أن يلى السلطنة العظمى، فإنه كان يرسل ألف دينار ذهباً تورع أيام موسم الحجّ على فقراء مكة يستعينون بها على مصروف الحجّ أيام منى وعرفة، وألف دينار ذهباً لفقراء المدينة في أيام موسم الحجّ يستعينون بها على الوصول من المدينة المنورة إلى مكة المشرفة لأداء الحجّ الشريف في كل عام. وكان يخصُّ بعض العلماء والصلحاء والمشايخ بكسوة من الأصواف الخاصة وبعض غير ذلك، يرسلها إليهم يستمدُّ منهم الدعاء بظهر الغيب منهم^(١).

فلما ولى السلطنة الشريفة وجلس على التخت الشريف السلطاني كان يرسل لهم عوائدهم السابقة في كل عام وجعل ذلك مضافاً إلى دفتر صرّ الرومية فكانت تردُّ أيام سلطنته الشريفة واستمرت ترد إلى الآن بعد انتقاله إلى رحمة الله تعالى، وذلك أيضاً من مقاصده الجميلة وخيراته الباقية العميمة، وله أنواع من الخيرات أيضاً في القدس الشريف وفي الشام وفي حلب وفي مصر بجامع الأزهر وغيرها من الممالك الشريفة العثمانية، غير ما بنى في بلاد الروم من المدارس والجوامع والتكايا وغير ذلك رحمه الله تعالى.

فصل فيما وقع من عمارة الحرم الشريف المكي في أيامه

اعلم أن عمارة المسجد الحرام راده الله تعالى شرفاً وتعظيماً، ومهابة وتكريماً، من أعظم مزايا الملوك والخلفاء، وأشرف مآثر أكابر السلاطين العظماء، وقد يسّر الله تعالى ذلك لسلاطين آل عثمان، أيّد الله تعالى نصرهم وخلّد سعادتهم مدى الزمان، فوقع الشروع فيها في أيام دولة السلطان الأعظم، الخاقان الأكرم الأفخم، خليفة الله في أرضه، القائم بإقامة سنته وفرضه، ملك البرّين والبحرّين، وسلطان الروم والترك والعرب والعجم والعراقين، صاحب المشرقين والمغربين، خادم الحرمين الشريفين المحترمين، عامر البلدّين الكريمين المنيفين، واسطة عقد ملوك بني عثمان، السلطان سليم خان بن السلطان سليمان، أمطر الله تعالى على تربتهما سحائب الرحمة والرضوان، وجعل قبرهما روضة من رياض الجنان، وجعل السلطنة كلمة باقية في عقبهما إلى يوم الحشر والميزان.

إلى أن يعود القارطان كلاهما ويُحشر في القتلَى كُليبٌ لوائل

وسبب الأمر الشريف بتعمير المسجد الحرام أن الرواق الشرقي منه مال إلى نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رءوس خشب السقف الثالث منه عن محلّ تركيبها في جدر المسجد، وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباي وجدر المدرسة الأفضلية التي هي الآن من أوقاف المرحوم ابن عباد الله من شرقي المسجد الحرام، وفارق خشب السقف عن موضع تركيبه في الجدر المذكور أكثر من ذراع ومال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلاً ظاهراً بيّناً، وصار نُظَّار الحرم الشريف يصلحون المحلّ الذي قد فارق خشبهُ سطح الحرم محلّ تركيبه في الجدر إمّا بتبديل خشب السقف بأطول منه أو بنحو ذلك من العلاج.

وأما الرواق الذي ظهر ميله إلى صحن المسجد فترسّوه بأخشاب كبار

حفروها في المسجد تمسكه عن السقوط، واستمرّ الرواق الشرقي متمسكاً على الأسلوب في أواخر دولة المرحوم السلطان سليمان خان وصدرًا من دولة المرحوم السلطان سليم خان، ثم لما فحش ميلان الرواق المذكور عُرِض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية السليمية في سنة تسع وسبعين وتسعمائة، فبرز الأمر الشريف السلطاني بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه على وجه الإلتقان والإحكام، وأن يجعل عوض السقف الشريف قُببًا دائرة بأروقة المسجد الحرام ليؤمن من التآكل فإن خشب السقف كان متآكلًا من جانب طرفيه بطول العهد، وكان يحتاج بعض السقف إلى تبديل خشبه بخشب آخر في كل قليل إذ لا بقاء للخشب زمانًا طويلاً مع تكسر بعضه^(١).

وكان سقفاً بين كل سقف نحو ذراعين بذراع العمل، وصار ما بين السقفين مأوى للحيات وللطيور فكان من أحسن الرأي تبديلها بالقبب لتمكّنها ودفع مواد الضرر عنها^(٢).

ووصلت أحكام سلطانية إلى بكربكى مصر يومئذ الوزير المعظم حضرة سنان باشا أدام الله تعالى سعادته وإقباله، وضاعف عظمته وإجلاله، أن يعين لهذه الخدمة من أمراء السناجق المتحفظين بمصر من يخرج عن عهدة هذه الخدمة الشريفة ويكون في غاية الديانة والأمانة والمعرفة والخير والصلاح، فأمر البكربكى يومئذ وهو الوزير المعظم سنان باشا أمراء مصر أن يقبلوا هذه الخدمة فما أقدم أحد على تلقيها بالقبول لكثرة مشقتها واشتغالهم بأمور دنياهم والتوغّل فيما يعود عليهم نفعه عاجلاً من غير مشقة.

وكان من جملة الأمراء المحافظين بمصر كتّخذاء المرحوم إسكندر باشا الجركسى بكربكى مصر سابقاً فخر الأمراء العظام، ذخر الكبراء ذوى الاحترام، أحمد بك بارك الله تعالى فيه وأناله من خيرى الدنيا والآخرة ما يرتجيه، وكان ممن قد اجتمع فيه هذه الخصال المحمودة المطلوبة من حبّ الخير

(١) إعلام العلماء ص ١٢٠.

(٢) نفس المصدر.

والتوجه إلى الله تعالى وقلة الميل إلى الدنيا وزخارفها، والميل إلى الفقراء والضعفاء والعلماء والتواضع مع الناس وحبّ المعدلة والاستقامة مع صدق الخدمة وكمال الديانة والأمانة والإقدام وعلوّ الهمة ووفور الاهتمام، فطلب من حضرة الوزير المشار إليه هذه الخدمة الشريفة وأضيف إليه عمل بقية دبل عين عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة المشرفة، فإن السلطنة الشريفة أمرت أن يُبنى بها دبل مستقل ولا تجرى في دبل عين حنين، فعينت هذه الخدمة أيضاً للأمير أحمد المذكور وعرض له ذلك إلى الباب العالي فوردت الأحكام الشريفة السلطانية له بذلك حسب ما عرض له.

وأضيف له إلى هذه الخدمة المشرفة سنجق بندر جدة المعمورة تعظيماً لشأنه وتوقيراً لقدره ومكانه، وبعد ورود الأحكام السلطانية إليه أخذ في أهبة السفر وتوجه من مصر من طريق البحر إلى بندر جدة، ثم وصل إلى مكة شرفها الله تعالى في أواخر سنة تسع وسبعين وتسعمائة^(١)، مهتماً غاية الاهتمام فيما أمر به من خدمة المسجد الحرام، متوجّهاً إلى ذلك مقبلاً عليه بغاية الإقدام وسائلاً من الله تعالى الإعانة والإمداد التام، ثم إن الأوامر السلطانية وردت أن يكون الناظر على هذه الخدمة الشريفة والمتكلم عليها من جانب السلطنة المنيفة سيدنا ومولانا ناظر المسجد الحرام ومدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام بدر الملة والدين حسين الحسيني خلد الله تعالى سعادته على الدوام، ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرح التام، وشدّ نطاق حزمه، على مناطق عزمه، وقام في ذلك أحسن قيام، وحصل بين يدي الناظر والأمير أحمد المشار إليه كمال الملاءمة والاتفاق، وبذلك يحصل تمام النجاح والارتفاق.

وجرت عادة الله بأن الخير كله في الوفاق، والشرّ جميعه في الشقاق، ولم يكن الرفق في شيء إلا زانه، ولم يكن العنف في أمر إلا شاناه، ومن أراد الرفق بعباد الله تعالى رفق الله تعالى به وأعانه، ووصل لهذه العمارة

الشريفة معمار دقيق الأنظار، جزيل الآثار، تقدّم له مباشرة الأبنية العظيمة، وحصلت له بالتجربة خبرة تامّة ومعرفة مستقيمة، أجمع المهندسون على تقدّمه في هذه الصناعة، ودقّة نظره في لوازم هذه البضاعة، اسمه محمد جاوش الديوان العالى، وهو إنسان من أهل الخير عظيم الأمانة، كثير الديانة مستقيم الرأى منور الباطن مشكور السيرة زاد الله تعالى توفيقه وأرشد طريقه .

فاتفق الناظر والأمير والمعمار على الشروع فى هدم ما يجب هدمه إلى أن يوصل إلى الأساس فشرع أولاً فى إكمال الدبل المستقلّ لإجراء عين عرفات وبنائه من جهة المدعى، ثم مرّ به فى عرض خان قايتباى إلى جهة المروة، ثم إلى جهة سويقة، ثم عطف به إلى السوق الصغير وأكمّله إلى متهاه^(١).

وبنى قبة فى الأبطح جعل فيها مقسم ماء عرفات، وركب فى جدره بزاييز من النحاس يشرب منها الماء، ثم بنى مسجداً وسبيلاً وحوض ماء للدواب على يمين الصاعد إلى الأبطح فى قبلى بستان بيرم خواجه الصائر إلى المرحومة الخاصكية أمّ السلاطين طاب ثراها وبنى مسجداً آخر وسبيلاً ومتوضاً فى انتهاء سوق المعلاة على يسار الصاعد^(٢)، وكلّ ذلك من أعمال الخير الجارية النافعة للمسلمين، وعرض ذلك على أبواب السلطنة فأنعمت على الأمير المشار إليه بسبعين ألف عثمانى ترقياً فى علوفته فى مقابلة هذه الخدمة، ثم شرع فى تجديد أروقة الحرم الشريف فبدأ فيه بالهدم من جهة باب السلام فى منتصف ربيع الأول سنة ثمانين وتسعمائة، وأخذت المعاول تعمل فى رأس شرفات المسجد وطبّاطب سقفه، إلى أن ينكشف السقف فتنزّل أخشابه إلى الأرض، وتجمع فى صحن المسجد الشريف وينظف الأرض من نقض البناء وأتربته وتُحمّل على الدواب وتُرْمى فى أسفل مكة فى ناحية جبل الفلق، ثم تُمال الأساطين الرخام إلى أن تنزل باللطف إلى

(١) منائح الكرم ٣/٤٦٢.

(٢) منائح الكرم ٣/٤٦٣.

الأرض. واستمرّوا في هذا العمل إلى أن نظفوا وجه الأرض من ذلك من باب على إلى باب السلام وهو الجانب الشرقي من المسجد، ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلاً فأخرجوا الساس جميعه وكان جدرًا عريضاً نازلاً في الأرض على هيئة بيوت رُقعة الشطرنج، وكان موضع تقاطع الجدران على وجه الأرض قاعدة تركيب الأستوانة على تلك القاعدة، فشرع أولاً في وضع الأساس على وجه الإحكام والإتقان من جانب باب السلام، لست مضين من جمادى الأولى سنة ثمانين وتسعمائة^(١).

واجتمعت الأشراف والكبراء والعلماء والقضاة والأمراء والفقراء والمشايخ والصلحاء تبرُّكاً وتيمناً بالحضور في هذا الخير العظيم، وقُرِئت الفواتح بإخلاص من سويد القلب والصميم، وذُبِحَت الأبقار والأنعام والأغنام، وتصدّق بها على الفقراء والخدم، ووضع الأساس المبارك، بإعانة الله تعالى وتبارك، وكان يوماً مباركاً مشهوداً، ميمناً ميموناً مسعوداً، والله الحمد على هذا الإكرام، وله الشكر والثناء الحسن في المبدأ والختام^(٢).

وكانت الأستابين المبنية سابقاً على نسق واحد في جميع الأروقة، فظهر لهم أن ذلك الوضع لا يقوى على تركيب القيب عليها لقلّة استحكامها، إذ القبة يجب أن يكون لها دعائم أربع قوية تحملها من جوانبها الأربعة، فأوا أن يدخلوا بين أستابين الرخام الأبيض دعائم أخرى تُبنى من الحجر الشمسي الأصفر، تكون سُمكها مقدار سُمك أربع أستوانات من الرخام ليكون مدعماً لها من كلّ جانب، فتقوى على تركيب القيب من فوقها ويكون كل صف من أستابين الأروقة الثلاثة في غاية الزيتة والقوة^(٣).

ففي أول ركن من الرواق الأول دعامة قوية مبنية من الحجر الشمسي ثم أستوانة رُخام أبيض من أستابين الرواق السابق عليهما عقد، ثم أستوانة

(١) إعلام العلماء ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢) المصدر السابق ص ١٢١.

(٣) إعلام العلماء ص ١٢١.

رخام كذلك بينها وبين الذى قبلها عقد آخر، ثم أسطوانة رخام كذلك، ثم دعامة من الحجر الأصفر الشميسى وعلى هذا المنوال إلى آخر هذا الصف من أساطين الرواق، ثم الصف الثانى من الرواق الثانى كذلك على هذا المنوال، ثم الصف الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال^(١).

ثم بُنيت القبب على تلك الدعائم والأساطين فى دور المسجد جميعه، وشرعوا من ركن المسجد الشريف من جهة باب السلام كما تقدم، وقاسوا تلك الصفوف بخطّ مستوي، وأزالوا ما كان قبل ذلك من الازورار والاعوجاج^(٢).

والحجر الشميسى: نسه إلى شُمَيْس، تصغير شمس جبل بقرب بئر شُمَيْس، وهى حد الحرم من جانب جدّة به جَبِيلان صُفْر تُكسر منهما هذه الأحجار وتُحمل إلى مكة مسافة ما دون ليلة.

فكان فى إدخال هذه الدعائم الصُفْر ما بين الأساطين الرخام البيض حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة، وهى أن أساطين الرخام الباقية فى المسجد ما كانت تفى بجوانبه الأربعة، لأن الجانب الغربى منه احترقت أساطينه الرخام وسقفه فى أيام الجراكسة فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتين وثمانمائة^(٣).

وأرسل من أمرائه الأمير بيسق الظاهرى إلى مكة المشرفة، فعمر الجانب الذى احترق من المسجد بالحجر الصوان المنحوت كما قدمنا ذكر ذلك فى محلّه، فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام وهى الجانب الشرقى والجانب اليمانى والجانب الشامى على نسبة واحدة أساطينها من الرخام الأبيض، والجانب الغربى أساطينه جميعه من قطع الحجارة المنحوتة من الحجر الصوان غير مناسبة للجوانب الأخر الآن، وبإدخال هذه الدعائم

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر.

(٣) إعلام العلماء ص ١٢٢.

الصفراء صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة وهي أن كل ثلاث أساطين من الرخام الأبيض تكون رابعتها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشميسي، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربعة من المسجد الشريف، كلها قائمة على أقدامها بغاية الإحكام^(١)، كأنها صفوف واقفة بالأدب حول صحن بيت الله الحرام المعظم من جهاته الأربع، وهي أعلى من الارتفاع السابق وأرفع، كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها بل تتفوق على ما سواها وتطول:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا يَتَى دَعَائِمَهُ أَعَزَّ وَأَطْوَلُ

واستمر أمين العمارة الشريفة حضرة الأمير أحمد المشار إليه، شكر الله سعيه وبارك له وعليه، في غاية بذل الجِدِّ والاجتهاد، مقرون الحركة والتوفيق والسداد، يتلطف بالخدم والعمال، ويفضّل عليهم بأنواع الإفضال، ويوصلهم أجورهم كاملة لا يقطع منها مقتطعاً لأحد ولا يضر بحاله، ولا ينقص من أجرتهم شيئاً بل يزيدهم من عنده ويسامحهم بماله، مع كمال الدقة في الأموال السلطانية والحرص على حفظها وعدم التبذير منها.

وأما مال نفسه فيوسّع به على الفقراء ويُنذِل لهم وللخدّام والعمال ما أراد، ويحسن إلى أهل البلاد، مع التواضع وحسن الخلق ولين الكلام، ومواتاة الناس في جميع المهام، والمشى في تشييع الجنائز معهم وعبادة مرضاهم، وسلام القُدوم واستجلاب رضاهم، بحيث ترك عظمة الإمارة وصار من جملة فقراء الناس لكثرة تواضعه، فأحبه الناس وحمدوه وشكروا جميله وإحسانه وذكروا كثرة تجمله ولطفه.

ولقد جاءني إلى منزلي متفضلاً مراراً وأنا من آحاد الفقهاء بل من أدنى الفقراء، وما فعل ذلك إلا محبة في الله أحبه الله لا لأمر يناله مني، فإنه أجلُّ قدرًا وأعظم خطرًا من ذلك، وما ذكرته إلا ليُعَلِّم حسن تواضعه وتخلقه لهذه الخدمة السنّية الفاخرة، وأتمّ عمل هذا الخير العظيم على يده

فيكفيه بذلك سعادة الدنيا والآخرة، فكم من وزير كبير نبيل، بل ملك عظيم جليل، يتمنى الوقوف في هذه الخدمة مع جلالته وعظمته، ويعدّها من أكبر سعادة دنياه وآخريته، وما قدرها الله تعالى، إلا لمن ظهرت العناية الأزلية في حقّه، فاختره الله تعالى لذلك من بين عباده واصطفاه من خلقه، وهو هذا الأمير الكريم الصفات، فالله تعالى يعينه على فعل الخيرات، ويسدّه في أفعاله وأقواله ويوفّقه للباقيات الصالحات.

فلما أكمل جانبين من المسجد الحرام وهما الجانب الشرقي والجانب الشمالي، وصل خبر انتقال حضرة السلطان سليم، إلى دار النعيم، رحمه الله وطيب ثراه، وأحسن في الدار الآخرة مثواه، واستمرّ حضرة الأمير أحمد المشار إليه، أحسن الله تعالى إليه، في عمله المبرور، وفعله المعمور، بالخير المغمور، مستعيناً بالله وليّ الأمور.

فصل في وفاة المرحوم المقدس السلطان سليم خان الثاني وانتقاله إلى عالم القدس من ملك هذا العالم الفاني

لما كان لكلّ أجل كتاب، ولكلّ نفس أنفاس معدودة بقدر الله تعالى في أمّ الكتاب، لا يسلم منه والد ولا مولود، ولا سلطان ذو جنود، ولا سيّد ولا مسود، ولا ينجو منه كلُّ شيء خرج من كتم العدم إلى فضاء الوجود.

هو الموت سلطان البرايا كعاجز لديه غلابٌ كمن لم يغالب
ودرعُ الفتى في حكمه درع غادة وإيوانُ كسرى من بيوت العناكب

قدر الله تعالى له بالإجابة عن كل ما يخالف أمره ورضاه، وغلب عليه عند قرب توجّهه إلى الله تعالى صلاحه وتقواه، وطهره بمقاساة المرض ونقاه، وصيره نوراً روحانياً، وروحاً نورانياً، وجوهرًا علويًا سنياً، وهكياً شريفًا ملكيًا يصلح لجناب قدسه الكريم، ودعاه قلبه بقلب سليم، ومضى

إلى رحمة ربّه الرحيم، فاتزراً بالملك الأخرى فى جنّات النعيم، مخاطباً من الحضرات الإلهية، بلسان الألفاظ الرحمانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] وكان وقوع هذا الأمر المهول لسبع مضيّن من شهر رمضان، زمان فيضان الرحمة والإحسان، سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ودُفن جسده الشريف، وهيكله الطاهر المنيف بقُرب أياصوفيا فى تربة طيبة غرّاء، وروضة نضرة غنّاء، تنوح بها ورق الأطيّار، وتبكي فيها سحُب الأمطار، وتشقّق أثوابها أكمّام الأزهار، وتلطم خدودها أوراق البهار، أنزل الله عليه مطر الرحمة والرضوان، وجعل قبره الشريف روضة ناضرة من رياض الجنان.

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما	سرى جوده فوق الركاب ونائله
أفاض عيون الناس حتى كأنّما	عيونهم ممّا تفيض أنامله
فيا عين سحّى لا تشحى بسائلٍ	على ملك لا يعرف النهر سائله
فإن دفنوا تحت التراب جماله	فما دُفنت أوصافه وشمائله
سقى جدّكّا هالت عليه ترابه	أناملهم سحّ الغمام ووابله
